



ANNALES ISLAMOLOGIQUES

en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne

AnIsl 22 (1987), p. 1-9

Muḥammad Naṣr Muḥannā

-al hū-kataba - mulūk-al Ādab *آداب الملوك - كتبه المملوك برد بك - دراسة وتحقيق وتعليق*
mamlūk Bard Bak - dirasa wa taḥqīq wa ta'liq.

Conditions d'utilisation

L'utilisation du contenu de ce site est limitée à un usage personnel et non commercial. Toute autre utilisation du site et de son contenu est soumise à une autorisation préalable de l'éditeur (contact AT ifao.egnet.net). Le copyright est conservé par l'éditeur (Ifao).

Conditions of Use

You may use content in this website only for your personal, noncommercial use. Any further use of this website and its content is forbidden, unless you have obtained prior permission from the publisher (contact AT ifao.egnet.net). The copyright is retained by the publisher (Ifao).

Dernières publications

9782724711899	<i>BCAI 40</i>	
9782724711288	<i>Karnak-Nord XI</i>	Colin Hope
9782724711622	<i>BIFAO 126</i>	
9782724711059	<i>Les Inscriptions de visiteurs dans les Tombes thébaines</i>	Chloé Ragazzoli
9782724711455	<i>Les émotions dans l'Égypte Ancienne</i>	Rania Y. Merzeban (éd.), Marie-Lys Arnette (éd.), Dimitri Laboury, Cédric Larcher
9782724711639	<i>AnIsl 60</i>	
9782724711448	<i>Athribis XI</i>	Marcus Müller (éd.)
9782724711615	<i>Le temple de Dendara X. Les chapelles osiriennes</i>	Sylvie Cauville, Oussama Bassiouni, Matjaž Kačičnik, Bernard Lenthéric

خاتمته :

أقام الاسلام دولة منذ البداية ، كما أقام نظاما ، وأنت نصوصه وأحكامه بتنظيم لشئون الدين والدنيا . والتراث الاسلامي سيظل يستأثر باهتمام الباحثين ، فهو جزء من عبقرية الامة الاسلامية ، وأوقات الضعف التي أصابت هذه الأمة ، - والجدل المثار حول العلاقة بين قومية الأمة والاسلام - لا يعنى هذا أن الاسلام عربي فقط ، فالاسلام أعم وأشمل ، ولم يأت للعرب فقط ، فالعرب أقلية بين المسلمين ، ولكنهم أكبر أقلية بينهم ، وهناك علاقة خاصة بين الاسلام والعروبة كاللغة والتراث الفكرى .

والنتائج التي استخلصتها من دراسة هذا المخطوط القيم ، من وجهة نظري ، تكمن في أن عصر المماليك لا يعتبر شرأ كله بالرغم من أن المماليك غرباء على حضارة المنطقة .

ومن هنا فان إخراج هذا المصدر الثمين هو انجاز لا بأس به ، فهو فضلا عن اعتباره النسخة الوحيدة ، فهي أيضا نسخة كاملة ، وواضح أن الناسخ كتبها على نظام الورقة ، وقد كتبت المخطوطة بخط عربي واضح ، وكان لطبيعة تخصص الناسخ - وهو من طبقة المستجدة الملكي الاشرفي - أثر واضح في ترتيبها .

ومن تحليل نص المخطوط يتضح أن مصر مرت بفترة كانت العقيدة الدينية وحدها هي الصلة بين الحاكم والمحكومين ، على حين أن الرابطة القومية كانت مبعث تناقض واختلاف بين الحاكمين من المماليك أنفسهم .

ومن منظور تاريخي ، فقد تم القضاء على الدولة المملوكية في يناير عام ١٥١٧ م وذلك بهزيمة طومان باي - الذي يتعرض مخطوطنا هنا لسلفه قنصوه الغورى - . وكان طومان باي بذلك آخر سلاطين المماليك الذي هزم على يد السلطان العثماني سليم الأول بدخوله القاهرة .

إن المؤلفات التاريخية التي ظهرت في نهاية العصر المملوكي مثل كتاب « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغرى بردى ، وكتاب « بدائع الزهور في وقائع الدهور » لمحمد بن احمد بن اياس . . هذان الكتابان يميل أسلوبهما الى استخدام العامية المنثورة . وبالمثل نلاحظ ذلك في صياغة هذا المخطوط .

ومن الثابت أن تحقيق مثل هذه المخطوطات والوثائق وضبط أحداثها لتخرج في صورة صحيحة تليق بها وتحفظ مصادر التاريخ والفكر الاسلامي - يحتاج ذلك الى تعاون الباحثين بصرف النظر عن جنسياتهم باعتبار أن التراث الاسلامي هو تراث للانسانية كلها .

- فانه مسئول عن أفعالهم كما سئل عن فعل نفسه . قال الله تعالى : « وانذر عشيرتك الاقربين » . قال ازدشر : إذا كان الملك عاجزا عن صلاح خواصه ومنعهم عن الظلم فكيف يقدر على ردهم الى الصلاح . وليس شيء أهيب في قلوب العمال والرعية عن سهولة الحجاب . فإذا كان الملك سهل الحجاب لم يكن العمال يجوروا ، وضائق الرعايا من جور بعضهم على بعض ، ومن سهولة الحجاب . / واجلسك مكان عثمان ذي النورين ، وانه يطلب منك مثل حياته ، فاکرمه ، وانزلك مكانه على بن ابي طالب ، ويطلب منك مثل عمله وزهده ، وعدله . فقال : زدني . قال :
- [١-١٦] نعم . ان الله تعالى جعل لاعدائه نارا اي دارا تعرف بجهنم ، وانه قد جعلك بواب / تلك ، واعطاك ثلاثة اشياء : بيت المال ، والسيف ، والسوط ، وأمرک ان تمنع الناس من دخول النار بهذه الثلاثة . فمن حاك محتاجا ، ولا يمنعه من بيت المال ، ومن خالف امر الله ، فادبه بالسوط . ومن قتل نفسا بغير حق فاقتله بالسيف . فان لم تعمل ما أمرک به فانك تكون الرغيم لاهل النار / يكون للملك اطلاع على سائر الاعمال ولا يكون الملك غافلا ليكون الهيبة عن ناموس المملكة باقية ، وذلك لا يحصل الا بالتيقظ ليستريح من المهوم الحادثة من الغفلة . روي عن عمر بن الخطاب - رضی الله عنه - انه كتب الى عامله ابن ^(١) موسى الاشعري .
- [١٧-ب] / اما بعد . فان اسعد العمال من سعدت به رعيتهم ، واشقاهم من شقيت به رعيتهم . اياك والتبسط باموال المسلمين . فان رعيتك يقتدوا بك ، فانما مثلك مثل دابه ذات مرعى اخضر ؛ فاكلت وسمنت وكان سمنها هلاكها لانها عند سمنها تذبج وتؤكل . / وهذا كان دأب عمر بن الخطاب - رضی الله عنه - في كتابه الى عماله ، وكذلك سائر الخلفاء - رضی الله عنهم - وينبغي للملك ان يجب لقاء الصلحاء ، والزهاد ، والاتقياء ، ويحترم جنابهم ، ويعظم ثناءهم ، ويطلب منهم المواعظ كما كانت سائر الخلفاء تفعل . روي ان / شقيق البلخي مر على هارون الرشيد فقال : انت شقيق الزاهد . قال : أنا شقيق ولست بزاهد . فقال : اوصيني . فقال : ان الله تعالى اقعدك مكان الصدق ، وانه يطلب منك مثل صدقة ، وانه أعطاك موضع عمر الفاروق ، ويطلب من الفرق بين الحق والباطل / اللهم أمتنا على الحق ، وانت راضی ^(٢) عنا يا رب العالمين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ؛ وصلی الله على النبي الامي ؛ وعلى آله ، وصحبه وسلم .

(١) هكذا الأصل وصحتها «أبي موسى الاشعري» . - (٢) هكذا الأصل وصحتها «راض» .

/ وكل انسان يذكر بما يفعل ، وينسب الى ما كان يعمله ان كان خيرا فخييرا ، وان كان شرا [٦ - ب] فشرا . ويقال : ان الاسكندر ركب يوما في موكب مملكته فقال بعض مقدميه : ان الله أعطاك ملكا عظيما فلو انك تستكثر من النساء فتكثر اولادك فتذكر بهم بعدك . فقال الاسكندر : ليس ذكر الرجال بعدهم بذكر الاولاد ؛ ولكن بالحسن وعدل السنة ، ورجل غلب رجال الدنيا لا يجوز بغلب النساء .

/ للملك الاعتناء بأمور الدين فقد قالوا : الدين والمملك توأمان مثل اخوين ولدا في بطن واحد فيحبب [٧ - ب] الاسلام ولعزه ^(١) ، ويجتهد في إعادة السنة النبوية والسيرة المرضية ليُحمد عن ذلك طريقه ، ويُعظم في القلوب هيئته . ويجب ان يعلم ان صلاح الناس في حسن سيرة المملوك . قالت الحكماء : طباع الرعية تشبه طباع الملك .

/ قال محمد بن علي بن الفضل ^(٢) : ما كنت أعلم ان أمور الرعية تجري على عادة ملوكها حتى رأيت الناس في أيام الوليد اشتغلوا بعمارة الكروم والبساتين واهتموا ببناء الدور وعمارة القصور . ورأيتهم في زمن سليمان بن عبد العزيز قد اهتموا بكثرة الأكل والطعام حتى ان الرجل يسأل صاحبه أى لون اصطنعت وما الذي اكلت ، ورأيتهم في زمن عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - قد اشتغلوا بالعبادة وتفرغوا لقراءة القرآن ، وأعمال الخيرات ، وإعطاء الصدقات ، فينبغي له ان يوزع الأوقات فان الملوك القدماء قسموا النهار أربعة أقسام ؛ قسم لعبادة الله وطاعته ، وقسم للنظر في أمور المملكة وإنصاف المظلومين ، وقسم للجلوس مع العلماء والفضلاء وتدير الامور وسياسة الجمهور ، وقسم للراحة وأخذ الحظوظ من الفرح والسرور والصيد واللعب .

/ وما أشبه ذلك ، ويقال ان بهرام وكور قسم نهاره قسمين وجعله نصفين . ففي النصف الاول [١٣ - ب] كان يقضي جوانج ^(٣) العالم ، وفي النصف الثاني كان يطلب راحة نفسه . ويقال : انه في زمانه ما اشتغل يوما بشغل واحد . وينبغي للملك ان لا يباشر الحرب بنفسه ، ويحفظ ناموسة ، ولكن كثيرا من الارباح يتعلق بروحه ، وصلاح الرعية في حياته . ومن الامثال السائرة : الجوهر لا يصارم . وكذلك ينبغي ان لا يجور على نفسه لئلا يجور على غيره . ويجب ان يحتسب وينام على فراشه غيره كل ليلة كما فعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليلة الغار . قيل ان بهرام ابن حشروا لما هرب وعسكره خوفا ان يصل قصره وعدوه اليه فقبل له : لا ينبغي للملك ان يهرب لئن همته جيدة متعلقة بهمته . فقال : لم أهرب الا لأخلص جماعة من اصحابي لاني لو هلكت لهلك بي طائفة من الخلائق ، فينبغي للملك بعهد أحوال عماله ورعاياه ، ولا يرضى ^(٤) لهم بالظلم .

(٣) هكذا الأصل والمقصود « حوائج » .

(١) هكذا الأصل .

(٤) هكذا الأصل والأصح « لا يرضى » .

(٢) هكذا الأصل .

النص مع الضبط والتحقيق :

بسم الله الرحمن الرحيم

[١ - ١] الى / فيقول ان الله تعالى انما يعطى المملكة من اصطفاه وراه اهلا لدعائه . قال الله تعالى « قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء^(١) وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شىء قدير » . فينبغي للملك ان يعرف قدر نعمة الله عليه في الولاية وعظم شره فانها نعمة ان قام بحققها نال من السعادة ما لا نهاية له ولا سعادة بعده على شرفها ، وعظم قدرها ، وحد خطرهما ما روى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « عدل السلطان يوما واحد أفضل من عبادة سنة » . وقال - عليه السلام - : « إذا كان يوم القيامة لا يبقى ظل ولا ملجأ الا ظل الله ، ولا يستظل بظله الا سبعة اناس سلطان عادل في رعيته » . وهو اول سبعة الذين ذكرهم الله تعالى ، وأقربهم السلطان العادل . قال - عليه السلام - : « والذى نفس محمد بيده انه ليرفع عمل السلطان العادل إلى السماء من العمل مثل عمل حملة الرعية ، وكل صلاة يصلها تعدل سبعين ألف صلاة » . فإذا كان الأمر كذلك فلا نعمة أجل من إعطاء درجة السلطنة فتكون ساعة من غيره تعدل جميع عمر غيره ، فينبغي للملك الاعتناء بالعدل ليبلغ به الى النعيم ويجمع به بين الدنيا والدين .

[١ - ٤] / قال تعالى :

« ان الله يأمر بالعدل والاحسان » . فيقال : ان ظهور العدل انما هو من كمال العقل والعادل هو من عدل بين العباد ، وحذر من الجور والفساد . قال موسى - عليه السلام - : « ان الله تعالى لم يخلق شيئا في الارض أفضل من العدل ، وهو ميزان الله في ارضه فمن تعلق به اوصله الى الجنة » .

[٦ - ٤] / ان عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - سأل محمد بن كعب . قال له : صف لى العدل . قال : « كل من كان أصغر منك سنا فكن له ابا ، ومن كان أكبر منك فكن له ابنا ، ومن كان مثلك فكن له اخا ، وعاقب كل مجرم على قدر جرمه ، واياك ان تضرب سوطا لمسلم على حقد منك فانه يصرك^(٢) الى النار ، فالعدل اول صفات الملوك الواجبة عليهم ، وكذلك العلم والسخاء والحلم والوفاء والرفاه والعقل والشجاعة والاقدام » .

« والثانى ، حسن الخلق ، وإنصاف الضعيف ، ومحبة الرعية ، وإظهار الزعامة والاحتمال والمدارات فى مكانها الرأى والتدبير فى الامور ، وحفظ سر الملوك الأولين التى يعتمد عليها ، والحفص^(٣) عن الامور التى يعتمدها وتعمل بها . فقد بقيت اثارهم واخبارهم تنزل عليهم فى الخير والشر . ان اثرنا تدل علينا .. فانظر بعدنا الى الآثار »

(١) هكذا الأصل . - (٢) هكذا الأصل والأصح : يوصلك . - (٣) هكذا الأصل .

الحياة الفكرية والقضاء في عصر المماليك :

على الرغم من التفكك السياسي والاختلاف المذهبي الذي عانت منه الدولة الإسلامية برمتها ، فإن الحياة الفكرية في مصر بصفة خاصة ؛ قد انتعشت إلى حد كبير نتيجة لتنافس الفرق المختلفة والمذاهب المتعددة ، مما نتج عنه ثراء فكري سياسي متميز شهدته مصر في العصور الوسطى ، بدليل أن المفكرين المسلمين قد أقاموا مراكز اشعاع فكري ، وكان للخلفاء والحكام دورهم في إثراء الحياة الثقافية في العصور الوسطى ، واهتموا بعلماء المسلمين ، وتنافست العواصم الإسلامية في القاهرة وبغداد ودور العلم ودور الحكمة لتأصيل الثقافة الإسلامية ، وصقلها ، ومن ثم كانت النهضة العلمية والثقافية التي اتسمت بها الحياة الفكرية في العالم الإسلامي وقتئذ .

ومن منظور تاريخي فإنه قد أخذ بمبدأ استخدام المماليك ولاية مصر الإسلامية من الطولونيين إلى الاخشيديين ثم الفاطميين - ولما آلت السلطة إلى الأيوبيين ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م نهجوا نفس السبيل وأكثروا من شراء المماليك الترك ، وبنيت لهم التكنات بجزيرة الروضة ، وأطلق عليهم اسم « المماليك البحرية » . ومنحت لهم الفرصة بعد ذلك في تولي الحكم في مصر .

ويعد السلطان قلاوون ٦٧٩ هـ / ١٢٧٩ م من أعظم^(١) سلاطين دولة المماليك حيث كون فرقة جديدة من المماليك ، كونها من الأرمن والجر كس ، وعرفت تلك الطائفة باسم « الجراكسة » . وكانت الغالبية العظمى من المماليك الذين جلبهم الأيوبيون وسلاطين المماليك من بعدهم إلى مصر تأتي من شبه جزيرة القرم وبلاد القوقاز وآسيا الصغرى وفارس وتركستان وبلاد ما وراء النهر ، فكانوا خليطاً من الأتراك والجرაკسة والروم والروس والأكراد ، فضلاً عن أقلية من مختلف البلاد الأوربية .

والمماليك عبارة عن طائفة من الأرقاء المشتريين بالمال ، ثم كثر عددهم وحكموا مصر ، ووضعوا أيديهم على بلاد أخرى خارج مصر ، واحتفظوا أثناء حكمهم لمصر بشخصيتهم ولم يختلطوا بأي عنصر من سكان مصر .

وقد انقسم المماليك فيما بينهم إلى أحزاب متطاحنة ، غير أن هذا الانقسام الداخلي لم يؤثر على وحدتهم كطائفة أو مجموعة إزاء العالم الخارجي الذي كانوا يواجهونه كعصبية واحدة وهذا يفسر قوتهم وانتصاراتهم الحربية في مواجهة العدو المشترك .

وكان باب الترقى في حكومة المماليك مفتوحاً أمام من تثبت كفايته في العمل ، فيترقى من مملوك بسيط إلى أمير حتى يبلغ عرش السلطنة ، ولم يكن السلطان إلا واحداً من أمراء المماليك قدموه

(١) راجع في تفصيل ذلك : دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ، القاهرة ، دار النهضة المصرية ، ١٩٧٦ ، ص ١٩٢ - ١٩٧ .

الخاصة بالنسخ والنقل وقد كتبه^(١) المملوك برد بك ، من طبقة المستجدة الملكي الأشرفي .
والمؤلف مجهول .

وقد التزم الناسخ عبر صفحات المخطوط بخاصية هامة ، وهي الحفاظ على التنسيق طوال صفحاته التسع عشر ، غير أن الناسخ قد نسي أو أغفل وضع التاريخ الهجري ، والشئ الوحيد الذي ذكره الناسخ في نهاية المخطوط هو هذه العبارة : « برسم خزانة مولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قنصوه الغوري أعز نصره » . وتأسيسا على ذلك تكون هذه المخطوطة من نسخ مطلع القرن السادس عشر الميلادي .

وترجع أهمية هذا المخطوط النادر – من وجهة نظري – الى الفترة الزمنية التي حكمت فيها مصر من جانب المماليك الجراكسة ، في عهد السلطان قنصوه الغوري ١٥٠١ – ١٥١٦ م^(٢) .

هذا المخطوط في الأدب السياسي المصري يلقي الأضواء حول تفسير ظاهرة السلطة وتطوراتها خلال مراحل تطور الفكر السياسي الاسلامي الذي شهد فترات من القوة والضعف غير أنها – أي ظاهرة السلطة – بقيت من حيث النظرية كما هي ، ولم يخرج فقهاء المسلمين في تعريفاتهم لظاهرة السلطة عن الفكرة المثالية التي ظهرت بها في صدر الاسلام . ومع ذلك فقد حاولوا تطويع الفكر لختلف الظروف التي عايشوها . فكان للمسلمين من أهالي البلاد المفتوحة ومن دخلوا في الاسلام ، إنجازات حضارية عظيمة أسهمت في تأصيل الفكر السياسي الاسلامي ، غير أن الفرصة لم تسنح لذلك الفكر في أن يبدي ويحدد فكان تطبيقه بشكل مختلف عما أراده له مفكروه وواضعوا أسسه ،

الجيش من المناشير وما يكتب من ديوان الوزارة وديوان الخاص وغيرها» . راجع : القلقشندي ، صبح الاعشى في صناعة الانشاء ، جزء (١) ، القاهرة ، نشر وزارة الثقافة والارشاد القومي ، بدون تاريخ إصدار ص ٥٤ ، ٥٦ ، ٩١ ، ١٢٨ .

(٢) وقد أعقبه طومان باي الثاني ١٥١٦ م – ١٥١٧ م وكان هذا الأخير آخر سلاطين دولة المماليك الجراكسة ، وتنقسم سلاطين دولة المماليك الى : سلاطين دولة المماليك البحرية وسلاطين دولة المماليك الجراكسة وتضم الأولى السلطنة المملوكية حتى الناصر محمد ، ثم عصر الناصر محمد ، ثم أولاد الناصر محمد وتشمل هذه الفترة من ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م – ٧٨٣ هـ / ١٣٨١ م ، ثم أحفاد الناصر ، وتضم الثانية سلاطين دولة المماليك الجراكسة (١٣٨٢ م – ١٥١٧ م) .

(١) ازدادت أهمية الكتابة في عصر الأيوبيين ثم في عصر المماليك عما كانت عليه في العصور السابقة حيث أولى السلاطين المماليك عنايتهم للديوان وأناطوا وظائفه الى القضاة والكتاب الاكفاء . راجع دكتور عبد المنعم ماجد ، الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى ، القاهرة بدون تاريخ إصدار ، ص ٣٥ . ويروي القلقشندي (عصر المماليك) ويشرح هنا أهمية أصحاب ديوان الانشاء – أي الكتابة – قائلا : « ومرتبته في زماننا أرفع مرتبة ومحلّه أعظم محل ، إليه تلقى أسرار المملكة وخفاياها ، وبرأيه يستضاء في مشكلاتها ، وعلى تدبيره يقول في مهماتها ، وإليه ترد المكاتبات ، وعنه تصدر ، وفي ديوانه تكتب الولايات السلطانية كافة ، ويقوم توقيعه على القصص في نفوذ الاوامر مقام السلطان ، وجميع ما يعلم عليه السلطان ، ومن جليل وحقير في مزرتة حتى ما يكتب من ديوان

